

دير القديس أبنا مقار
برية شيهيت

أَيْنَ شَوَّكَتُكَ يَا مَوْتُ أَيْنَ غَلَبَتْكَ يَا هَاوِيَّةُ

مع رسالتين تعزية

الأب متى المسكين

كتاب: أين شوكتك يا موت، أين غلبتك يا هاوية.

مع رسالتين تعزية

المؤلف: الأب متى المسكين.

الطبعة الأولى: ١٩٨٠

الطبعات اللاحقة: ١٩٨٦-٢٠٠٣

الطبعة السادسة: ٢٠١٨.

مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.

ص.ب. ٢٧٨٠ القاهرة.

الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣١٢٨ / ٢٠٠٣

رقم الإيداع الدولي: ISBN 977-240-164-9

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.

يُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرير - محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠

أو من: مكتبة الدير

أو من خلال الموقع على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org

أين شوكتك يا موت، أين غلبتك يا هامية؟

منذ أن سقط آدم، والموت هو عدو الإنسان الكبير، فإن كان للإنسان أعداء كثيرون بسبب الخطيئة، ولكن الموت كان دائماً أشدها سطوة وبأساً على نفسية الإنسان. هذه الحقيقة واجهها الإنسان طول حياته بجزع شديد مع خوف دائم ورعبة. وقد عبّر عنها بولس الرسول في الرسالة إلى العبرانيين بقوله: «الذين خوفاً من الموت، كانوا جميعاً، كل حياتهم تحت العبودية.» (عب ٢: ١٥)

أي أن الإنسان من شدة واستمرار خوفه من الموت، أصبح عبداً لهذا الخوف، لأن الخوف الشديد والمستمر من أي شيء، ينشئ حتماً حالة عبودية له، مع شعور بالعجز والمذلة!! هكذا عايش الإنسان الموت بهذا الإحساس من الخوف والمذلة كل أيام حياته حتى مجيء المسيح.

ولكن هل ترك الله الإنسان هكذا بدون شاهد على إمكانية غلبة الموت وتخطي سلطانه، في الأزمنة السالفة؟

○○○

مواقف غلبة الموت في العهد القديم

١ - إن أول نصرة حازها الإنسان ضد الموت بصورة حاسمة ملموسة كانت على يد أخنوخ بشهادة الكتاب المقدس: «وسار أخنوخ مع الله، ولم يوجد لأن الله أخذه» (تك ٥: ٢٤). ولكن لم تكن هذه النصرة الباهرة لأخنوخ ضد الموت جزافاً، فقد أثبت جدارة أمام الله، كافأه الله عليها علانية، إذ يقول بولس الرسول في الرسالة إلى العبرانيين: «بالإيمان نُقل أخنوخ لكي لا يرى الموت، ولم يوجد لأن الله نقله، إذ قبل نقله شُهد له بأنه قد أَرْضَى الله.» (عب ١١: ٥)

لأنه إن كان آدم بسبب عصيان الله قد وقع تحت سلطان الموت، فأخنوخ بسبب إرضاء الله كان أول إنسان بعد آدم، يهزم الموت ويطأه بقدميه ويرتفع إلى السماء حياً، وذلك شهادة على قوة إرضاء الله ومقدرتها على فك الإنسان من عبودية الموت والخوف منه!! الله أراد بنقل أخنوخ إلى السماء حياً، أن يخلخل من سلطان الموت ورعبته من إحساس الإنسان وضميره.

٢ - أما الموقف الثاني الذي تحدى فيه الإنسان الموت على مستوى الشعب بأكمله، فكان في مصر، حينما أطاع الشعب أمر الله على فم موسى بذبح خروف الفصح، ووضع الدم على الأبواب في وجه الملاك المهلك، أي ملاك الموت، الذي لما رآه الملاك تراجع. وهذا الدم، وإن

كان الشعب لم يدرك معناه العميق والبعيد، إلا أن ملاك الموت، الذي هو أيضاً ملاك الدم، كان يدرك السر الذي وراء دم خروف الفصح، حتى أنه ارتعب من مجرد الاقتراب نحو الباب الذي مُسح به. إذ أنه ليس بلا معنى قول سفر الرؤيا عن سر الخروف الذي دُبح في مصر هكذا: «... ومصر حيث صُلب ربنا أيضاً.» (رؤ ١١: ٨)

أي أنه كان معلوماً لدى كل الخليقة الأخرى العلاقة السرية بين دم الفصح الذي فدى شعب إسرائيل ونجّاه من يد الملاك المهلك في مصر، وبين الدم الذي فدى العالم كله ونجّاه من يد الذي له سلطان الموت، أي إبليس.

ولكن هذه النصرّة الثانية على الموت، التي جازها الإنسان على مستوى شعب بأكمله، لم تكن أيضاً جزافاً، بل نظير طاعة حرفية لوصية الله التي أمر بها الشعب على فم موسى.

أما الانطباع البعيد الأثر الذي نستشفه من تراجع ملاك الموت إزاء خروف الفصح، فهو بداية تقهقر وانكسار لسلطان الموت عن الإنسان.

مواقف أخرى عديدة

وبين نصرّة أخنوخ على الموت بواسطة إرضاء الله، ونصرّة شعب إسرائيل بأجمعه على الملاك المهلك بواسطة طاعة وصية الله، توجد أمثلة عديدة لنصرات كثيرة ومتوالية، فردية وشعبية، على الموت، سواء إزاء وحوش أو حوادث أو حروب أو أمراض أو كوارث، امتدت فيها

جميعاً يد الله وانتشلت الإنسان من موت محقق، مثل: داود من فم الدب والأسد ومن سيف جليات الجبار، وإيليا من يد إيزابل والأنبياء الكذبة، ثم صعود إيليا إلى السماء في موكب سمائي مهيب بمركبة نارية وخيول شارويمية أرسلت من السماء خصيصاً لنقل إيليا حياً بجسده، كأعظم نصرة على الموت، شاهدها الإنسان بجسده عياناً، كان إيليا فيها بسبب سيرته النارية في النسك والزهد والبتولية، مندوباً فوق العادة عن البشرية لسبق تذوق إمكانية غلبة الموت وتخطيه، في عظمة فائقة وتكريم سمائي كعربون لما سيحققه الرب يسوع لنا جميعاً:

كذلك في موقف أليشع النبي الذي بواسطة حفنة دقيق، نجده يتحدى سم الموت الكائن في القدر، والذي سرى في أجسام ضيوفه بسبب الأكل من قثاء بري سام (٢ مل ٤: ٣٨-٤١). هنا نجد نصرة علنية فوق الموت سببها معروف، وهو طاعة أليشع الفائقة لإيليا، التي تحقق فيها قول الإنجيل: «مَنْ يَقْبَلْ نَبِيًّا بِاسْمِ نَبِيٍّ، فَأَجْرُ نَبِيٍّ يَأْخُذُ» (مت ١٠: ٤١). وهكذا نال أليشع أجر إيليا تماماً، لا عن جهاد شخصي بالدرجة الأولى، بل عن طاعة لروح النبوة التي كان يحملها إيليا من الله!!

والفتية الثلاثة وهم في وسط أتون النار المحمية وألستها صاعدة ٤٩ ذراعاً كأنها فوهة بركان، وقد وقفوا معاً يسبحون الله في تحدٍ للموت وجبروت النار التي تمثل أرعب صورة لسلطان الموت على الإنسان، هذه النصرة الرائعة نالها الإنسان بسبب أمانته في الشهادة لعبادة الله. كذلك نقرأ عن دانيال كيف شاهد يد الله وهي تسد أفواه الأسود

عنه، فوقفت الأسود أمامه صامته حائرة، وهي تكاد يحققها الجوع. وكان هذا تعبيراً عن انكسار سطوة الموت عن الإنسان الذي يمثله دانيال، الذي استطاع ذلك بصلاته ثلاث مرات كل يوم، يصلّيها من علّيته وكواه مفتوحة، شهادة لله الحي الذي كان يعبد بـروحه وصدق قلبه، لا عن مظهر ولا عن تحد.

وأخيراً، في موقف بولس الرسول وهو يُحفظ مرات كثيرة من الموت، ويجوز كل أخطاره من سيول ولصوص وغرق ومكايد ورجم وسُمّ الأفعى التي أنشبت في يده أسنانها ولم يضره شيء، كل هذا ليتم فيه وعد الرب إزاء أمانة الكرازة باسمه، إلى أن يتم سعيه ويلبس إكليله.



كل هذه النصرات الكبيرة والكثيرة جداً في كل من العهد القديم والعهد الجديد، تكشف لنا عن مقدار القوة المذخرة لنا ضد الموت في صميم خلقتنا الأولى وما أضيف إليها من مواهب الخلقة الجديدة الروحية.

صحيح أن «آخر عدو يبطل هو الموت» (١ كو ١٥: ٢٦)، ولكن الله سبق وأبطله عنا مرات كثيرة في الماضي حتى يحرر الإنسان جزئياً من قيود عبوديته وحتمية الخوف منه.

الخطية والموت

كان هذا كله في الماضي، لأنه بسبب الخطية حُلَّت لعنة الموت وملكّت على الأرض كلها، الموت يسود الأرض! ليس حيٌّ على الأرض إلا ويموت، الموت يوجد خارجنا ويوجد داخلنا. «الموت مَلَكٌ على الجميع» كما يقول الكتاب في رسالة رومية: «بأنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع... قد ملك الموت!» (رو ٥: ١٢ و١٤)

ولأن الخطية، التي هي أصلاً من مشورة إبليس، كانت ولا زالت هي السبب في الموت، صار يقيناً عندنا أن سلطان الموت هو في يد إبليس.

سلطان الموت من سلطان الخطية:

وهكذا صار معلوماً أيضاً بيقين أقوى وأشد أنه لن يُنقَذ الإنسان من سلطان الموت، إلا إذا أنقذ من سلطان الخطية. لهذا نزل ابن الله من السماء وأخذ جسدنا بلا خطيئة وعاش بلا خطيئة، فتحرر جسدنا بالتالي من سلطان الموت. ولكن لكي يبيد الموت من جسدنا، كان لا بد أن يموت ويقوم، فيحطم قوته وسلطانه، ويبدد رغبة الخوف منه إلى الأبد، وهكذا بالموت داس المسيح الموت عناء، والذين في القبور أنعم عليهم بالحياة الأبدية.

وهكذا أيضاً لما أبطل سلطان الموت أبطل بالتالي مَنْ له سلطان الموت، أي إبليس.

«فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس، ويعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية.» (عب ٢: ١٤ و ١٥)

الانتصار على عبودية الموت والتحرر من الخوف منه:
الآن، إن مشيئة الله قد صارت لكل إنسان أن يختبر ويدوق الانتصار على الموت! أما الانتصار على شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة، وأما الانتصار على إغراءات الشيطان في هذا جميعه وكل أنواع الخطايا، فأمر مهم غاية الأهمية ولازم غاية اللزوم. ولكن تظل هذه النصره كلها ضعيفة متوعكة ناقصة جداً حتى تكمل خيرة الإنسان في الانتصار على عبودية الموت والخوف من الموت! لأن أعداء الإنسان حقاً كثيرون: الجسد والعالم والشيطان، ولكن الموت أخطرهم والخوف من الموت ألعنهم جميعاً. فإذا انتصرنا على الجميع وأبقينا على هذا العدو الأخير الذي هو الموت، أو تجاهلنا وجوده وتعامينا عن حالة الخوف منه الرابضة في أعماق كيان الذهن والضمير والتفكير، فإن كل نصرتنا المزعومة تبقى مزعزة قابلة للنكسة والانقلاب. لأنه حينما يظهر فجأة عنصر الموت أمامنا ويتهددنا بأية وسيلة وعلى يد أي إنسان، حينئذ يبدأ عامل الخوف من الموت يسود على كل الكيان، ويبدأ الإنسان بسبب صغر النفس ينكر منهج الفضيلة، ويحدد الإيمان والأمانة في اللحظة، في طرفة عين، ويستفيق وإذا

هو مغلوب منهزم أشر انهزام.

لذلك حينما يقول الكتاب: «آخر عدو يبطل هو الموت» (١ كو ١٥: ٢٦)، فهو يقصد ليس فقط عامل الزمن، بل وأيضاً يكشف ضمناً عن عنصر الخطورة الكامنة في هذا العدو الجبار الخبيث، وتفوق هذه الخطورة على كل ما عداها في كافة أعداء الإنسان الآخرين، بل ويشير الكتاب بذلك أيضاً إلى أهمية هذا العدو وقدرته على التربص في قلب الإنسان واختفائه وراء كافة الأعداء الآخرين!!

فإذا تركنا هذا العدو رابضاً في داخل القلب تحيط به هالته الكاذبة من الرعبة والخوف، يصبح كل جهادنا مهدداً وفي خطر.

إقامة لعازر من الموت

دليل على سيادة المسيح على الموت:

الرب بإقامته لعازر بعد أربعة أيام من موته وبعد أن أتت جسده في القبر، فضح جيروت الموت وهتك سلطانه علناً أمام الناس، وجرده من كل سطوته وحتميته؛ تَنّ اللحم والدم جعله خرافة، ورائحته الكريهة جعلها كاللحم الكاذب؛ نَفَضَ الدود عن اللحم المهراً، وأقام الأعضاء المفككة غضة نابضة بالحياة ونشاطها؛ هذا كله يعتبر حقاً عربون النصر على الموت الذي سلّمه لنا تمهيداً لما هو مزعم أن يعمل في أجسادنا جميعاً الذي عمله هو في جسده أولاً لتكون القيامة حقاً أبدياً لنا.

قيامه لعازر من الموت حياً بعد أن أكملوا كل مراسيم الموت والدفن من بكاء ودموع ورتاء وعزاء ومواساة حتى إلى اليوم الرابع، كفيل حقاً أن يبدد من مشاعرنا حتمية الموت التي طغت على وجداننا

وترسخت فينا، وكأن الموت لا راداً لقضائه.

لنلاحظ جميعنا أن الرب أقام لعازر من الموت قبيل موته هو مباشرة ليثبت لنا أنه وإن مات فهو سيد الموت، وإن قام فهو رب القيامة القادر بقوته وسلطانه أن يلغي الموت ويطأه لا بقيامته هو فحسب بل وبكلمة واحدة من فمه: «لعازر هلمَّ خارجاً» (يو ١١: ٤٣)!!

لقد سبق المسيح أن قال لمريم: «أنا هو القيامة والحياة... من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد» (يو ١١: ٢٥ و٢٦). إن سر المسيح والمسيحية يتركز في هذه الآية بقوة وإلهام، فالمسيح هو هو الحياة الأبدية؛ فمن ذا الذي يمسك بالحياة ويموت؟ ألم يقل المسيح بوضوح: «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو ٦: ٥٧)!!

وليكن معلوماً وعن يقين أن كل ما تبقى للموت ليسود عليه فينا من بعد قيامة المسيح، هو ما فينا من تراب فقط، حيث يعود التراب إلى التراب الذي أخذ منه. أما نحن الأحياء الآن بالروح، ونفوسنا الحية في المسيح والمخلوقة بالروح جديداً على صورة خالقها، فهذه لا نصيب للموت عليها البتة. هذه لن يحتويها قبر، ولن ترى ظلمة القبر أبداً، بل من نور إلى نور تنطلق، ومن مجد إلى مجد تنتقل!!

الخطورة الآن قائمة في أن يستولي الخوف من الموت على ما ليس له فينا، الخطورة كل الخطورة أن يدخل الخوف من الموت إلى نفوسنا الحية ويطفئ منها شعلة النور، أي الإيمان بالقيامة وبالمسيح القائم عنا ولنا وبنا، فيزيح روح الحياة من نفوسنا ويستوطن الموت في قلبنا كحالة خوف وهمي من عدو مقتول!!

المسيح أبطل الموت عن نفس الإنسان وأحل محله روح القيامة، وروح القيامة هو الذي سيقم جسداً أيضاً من بعد فساد، ويجعله على صورة النفس في البهاء والمجد كالْمسيح، لأن الكتاب يقول بغاية الوضوح: «الذي سيغيّر شكل جسد تواضعنا، ليكون على صورة جسد مجده» (في ٣: ٢١). الموت له سلطان الآن على التراب الذي في جسدنا، أي الجزء الميت فينا، ولكن لا سلطان له أبداً على الروح أو النفس التي في جسدنا، لأن المسيح يملأ الجسد كهيكل له، والنفس له عروس، والروح هي أصلاً من نفخة الله.

الهيكل الترابي المناسب فقط للأرض، ينحل بالموت لكي يتسنى لله أن يعيد بناءه بدون خطية لكي يناسب السماء، وذلك بواسطة المسيح الذي يحدد خلقته على صورته في المجد والكرامة.



الخوف من الموت وقيامة المسيح

إذن، فالخوف من الموت الآن أصبح بالنسبة للإنسان الذي يؤمن بقيامة المسيح، بمثابة تهديد مباشر ضد روح القيامة وتحويلها إلى عمل عاجز فاقد قدرته على إعطائنا روح المسيح وحياة المسيح: «لأنه إن كان الموتى لا يقومون فلا يكون المسيح قد قام، وإن لم يكن المسيح قد قام فباطل إيمانكم، أنتم بعد في خطاياكم، إذا الذين رقدوا في المسيح أيضاً هلكوا.» (١ كو ١٥: ١٦-١٨)

وهكذا يقف الخوف من الموت مساوياً لإنكار القيامة، إن لم يكن بالقم، فبجزع القلب وصغر النفس وانهزام الإرادة، حيث تنحل قوة النفس، فيضيع رجاؤها هباءً، وتعيش الروح في شبه ظلام! بل وأكثر من ذلك، لأن الآية السابقة تشير إلى أن فقدان الإحساس بالقيامة، يساوي البقاء في حالة الخطية!!

لذلك يُعتبر الموت والخوف من الموت أخطر عدو لنا الآن، مع أنه مقتول وغير موجود، وقد أبطله المسيح بموته وبقيامته، وأفقده كل سلطانه، وعزله تماماً عن الإنسان المولود من الله!! «لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس.» (عب ٢: ١٤)

المسيح الآن يملك في أولاد الله بروح الحياة، عوض الموت ومن كان له سلطان الموت أي إبليس الذي كان يملك على كل إنسان. وبذلك

أصبح الخوف من الموت يشير إلى أن المسيح لم يملك بعد كما ينبغي على كيان الإنسان نفسياً وروحياً، وهذا أمر خطير للغاية. نحن الآن موضوعون لنأخذ النعمة من الله للحياة بالمسيح يسوع، عوض الخوف من الموت الذي كان بسبب الخطية.

والكتاب يشدد جداً في مواضع كثيرة على أن عمل النعمة وعطية البر المجاني من الله بالمسيح أقوى جداً من عمل الخطية وسلطان الموت والخوف من الموت: «لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد، فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح... ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً، حتى كما ملكت الخطية في الموت هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا.» (رو ٥: ١٧ و ٢٠ و ٢١)

والذي يفوت على كثيرين هو أن بولس الرسول يشدد دائماً على أنه كما سقينا الخطية عن طريق الجسد كميراث محزن من آدم انتهى بالموت، هكذا سقينا النعمة مجاناً عن طريق الروح كميراث مفرح جداً من المسيح انتهى بالحياة الأبدية. ولكن كما أن الخطية لا تملك علينا إلا بالعمل والفعل الإرادي، كذلك فنعمة المسيح لا يمكن أن تملك علينا إلا بالعمل والفعل الإرادي. والذي تملك عليه النعمة، يستحيل أن يملك عليه الموت أو الخوف من الموت!

الثقة بالحياة الأبدية بدلاً من الخوف من الموت:

وهكذا يصير واضحاً غاية الوضوح، أنه كما أن الخوف من الموت هو نتيجة مباشرة لفعل انتهى بالخطية، هكذا الثقة بالحياة الأبدية هي

نتيجة مباشرة لعمل المسيح الذي انتهى برضاء الله وسُكنى النعمة: «لأن أجرة الخطية هي موت، وأما هبة الله فهي حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا» (رو ٦: ٢٣). لأنه كما تقف النعمة في مواجهة الخطية، هكذا تقف الحياة الأبدية في مواجهة الموت. وكما يقف الخوف من الموت كعثرة عظمت في وجه الإنسان السائر في طريق الله، كذلك تماماً يقف الفرح بالمسيح وبهجة القيامة كقوة فائقة ترفع إرادة الإنسان وإحساسه وفكره وضميره وكل كيانه فوق الموت والخوف من الموت.

المسيح وكل من يتصل بالمسيح لا يسود عليه الموت:

وليس عبثاً ما ينبهنا بخصوصه بولس الرسول من جهة أن المسيح الآن لا يمكن أن يسود عليه الموت، لأنه بهذا يعمق وعينا بأن صلتنا بالمسيح تمنع عنا منعاً باتاً الخوف من الموت لأننا نعيش الآن مع المسيح الحي، ونحن سنكمل هذه الحياة معه إلى الأبد بدون انقطاع: «إني أنا حي فأنتم ستحيون» (يو ١٤: ١٩). الموت لم يعد يستطيع قط أن يفصلنا عن الحياة التي في المسيح التي فينا الآن: «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعطني من ناموس الخطية والموت!!» (رو ٨: ٢). إن هذه الحقائق الإيمانية ينبغي أن تأخذ طريقها داخل شعورنا وإحساسنا، ليس النفسي والفكري فحسب بل والجسدي أيضاً. لأن الحياة الأبدية التي منحها لنا الله سوف تشمل حتماً وأكيداً هذا الجسد أيضاً. لأنه معروف أن المسيح هو «مخلص الجسد» أيضاً (أف ٥: ٢٣).

ولكن علينا في مقابل ما يفعله الموت في خلايا أجسادنا، ويحلها من سنة إلى سنة، ويضعف حواسنا وأعضائنا قليلاً قليلاً حتى في النهاية تصيبنا الشيخوخة وغموت، كذلك ينبغي أن نفسح للروح القدس وقوة

النعمة بفعل الإيمان والرجاء لكي يجدد صورتنا الداخلية ويضع كل ملاحظها الروحية، حتى نكون قريبين جداً من شكل المسيح وروحه وفكره وصفاته، حتى إذا متنا نوجد في الحال أحياء معه وجهاً لوجه!! :«إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله ولبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه» (كو ٣: ٩ و ١٠). لأننا إذ ثَبَّتْ عيون قلوبنا على وجه المسيح، نتغير إلى تلك الصورة عينها كما يقول بولس الرسول.

حياة الله فينا علامتها التحرر من إحساس الموت:

وبمجرد أن تبدأ حياة الله تعمل فينا، فستكون علامتها الأكيدة التحرر من الإحساس بالموت وغلبة الخوف منه، لأنه لا يمكن أن تسكن في الإنسان لعنة الموت وبركة الحياة معاً!! حياة الله فينا تطرد لعنة الموت وتطرح الخوف خارجاً. والإنسان الحي في الله، يحس جداً أنه أقوى من الموت، وأن الموت فَقَدَ سلطانه عليه. الإنسان الحي في الله لا يخضع في أعماقه للموت ولا للإحساس بالموت، حتى وهو يموت يشعر أنه لا يموت ولن يموت، وأنه سيبقى حياً ولن يفقد حياته في الله ولا لحظة واحدة ولا طرفة عين! الجسد سيعود إلى التراب الذي جاء منه، أما هو فسيظل مع المسيح ولن يتزعزع أبداً، بل ستنتفتح عيناه الروحيتين في الحال، لينظر نور المسيح وبعين مجد القيامة!!

أن يستسلم الإنسان للموت أو للشعور بالموت أو يخضع للخوف من الموت، هذا أمر ضد الإيمان، لأنه معروف أن الموت هو عدو للإنسان: «آخر عدو يبطل هو الموت»!! إذن، فنحن مطالبون أن نُخضع الموت ونقاومه ولا نعتد به، لا أن نخضع له، متقوِّين عليه بالرب وبشدة قوته،

عالمين أن قوة القيامة التي فينا قد دحرت الموت مرة وستدحره أيضاً حتى النهاية. هذا قد لقنه لنا الإنجيل بوضوح حينما علمنا أن نقول: «أين شوكتك يا موت، أين غلبتك يا هاوية» (١ كو ١٥: ٥٥). لقد غرانا الموت عن طريق الخطيئة، والمسيح حطم هذا وتلك، وأعطانا عوض الخطيئة برّه الشخصي، وعوض الموت حياته الأبدية.

ككيف نعيش بعد في الموت أو نخشاه؟ الموت الآن مربوط مع من له سلطان الموت، أي إبليس، باستعداد المصير المحتوم: «وطرح الموت والهاوية في بحيرة النار.» (رؤ ٢٠: ١٤)

كيف نخضع بعد للموت أو لسلطوته وهو فاقد وجوده منذ الآن وإلى الأبد؟! نحن الذين أخذنا روح الحياة غير المخلوقة التي للمسيح وصرنا خليقة غير مائتة بهذا القدر الممجد، كيف نعود ونخضع روح المسيح لأحاسيس الموت أو خشيته؟ أليست حياة المسيح فينا تعمل للحياة الأبدية بقدر ما يعمل الموت في جسدنا عشرة آلاف مرة؟ أو ربوات بلا عدد؟ المسيح أبطل الموت بقيامته، وأعطانا روح القيامة لكي نبطل بها الموت نحن أيضاً من كياننا الروحي في هذه الحياة كشهادة صادقة أن المسيح فعلاً يحيا فينا بقيامته وحياته الأبدية. إن إحساسنا الصادق بقيامة المسيح وسلوكنا في جدة الحياة التي وهبها لنا بقيامته، كفيلة بأن تعطينا الغلبة ضد الموت، لنطرح قوته خارجنا.

نجوز الموت مع المسيح، لكي نشترك في مجد القيامة:
ولكن كيف نحصل أكيداً على روح القيامة؟ هذا ما ينبغي أن نركز عليه في سلوكنا اليومي. لأن لا سبيل إلى نوال قوة القيامة إلا من

خلال الصليب. لهذا ينبغي أن نحوز الموت أولاً مع المسيح لكي نشترك في مجد قيامته وقوتها.

إذن، فالموت فَقَدْ حق المبادرة علينا ولم يعد يغزونا وكأننا مقيدون بسبب الخطيئة، بل قد تهيأنا من قِبَل الصليب والدم، ولبسنا الأسلحة الكفيلة بأن نسبق نحن ونغزوه! نحن مطالبون بأن نغزو الموت ونقتحم كل مكانه المخيف وأركانه المظلمة!! فالإنسان الذي تسلح بالصليب أصبح على استعداد الموت وسفك الدماء مع المسيح ومن أجله، بكل سرور ورضى: «من أجلك تُمات كل النهار» (رو ٨: ٣٦) بكل أنواع الميتات!!

«... في الأتعاب أكثر، في الضربات أوفر، في السجون أكثر، في الميتات مراراً كثيرة، من اليهود خمس مرات قبلت أربعين جلدة إلا واحدة، ثلاث مرات ضربت بالعصي، مرة رجمت، ثلاث مرات انكسرت بي السفينة، ليلاً ونهاراً قضيت في العمق، بأسفار مراراً كثيرة، بأخطار سيول، بأخطار لصوص، بأخطار من جنسي، بأخطار من الأمم، بأخطار في المدينة، بأخطار في البرية، بأخطار في البحر، بأخطار من إخوة كذبة، في تعب وكد، في أسفار مراراً كثيرة، في جوع وعطش، في أصوام مراراً كثيرة، في برد وعري.» (٢ كو ١١: ٢٣-٢٧)

كل هذه التي ذكرها لنا بولس الرسول هي في الواقع كل ما يملك الموت ومن له سلطان الموت، لكي يخيف بها الناس، وها هي أمامنا صارت موضع افتخار بولس الرسول لأنه اقتحمها كلها كشجاع،

وجرّدها من كل صفة الخوف والرعبة، بل جعلها وكأنها منهج عام لكل عابري طريق الملكوت!! إن كانت طبيعة الشيطان قد انفضحت لنا في الآية التي تقول: «قاوموا إبليس فيهرب منكم» (يع ٤: ٧)، هكذا صارت طبيعة الموت تماماً، فإذا قاومناها هزمنّاها وطردها؛ إذا أمّتنا أنفسنا بإرادتنا هرب الموت عنا وتحولت رعبته إلى غلبة وانتصار؛ وإذا أشفقنا على أجسادنا، وجبنت إرادتنا إزاء إماتة الذات، أخذ الموت فرصته علينا، وكلما تمادينا في العطف على أنفسنا وجزعنا منه أو من الألم أو الخسارة أو المرض أو الإهانة، كلما اقتحم الموت كياننا الداخلي ومعه الخوف والرعبة الكاذبة؛ وهكذا إلى أن يوقف فينا كل حركة شجاعة وكل شهادة صريحة وكل إيمان واضح، وقليلًا قليلًا يُخرجنا من ساحة الحرب مخدولين مهزومين، كخائفين من الموت، وهذه خديعة عظيمة، فهو لا يملك قط حق الغلبة علينا!!

فإذا شبّها الموت بسم العقرب أو الأفعى، والخطية بشوكة العقرب أو بأنياب الأفعى، فعليّنا أن ننتبه بالروح ونؤمن ونصدق أن المسيح كسر شوكة العقرب وأزال سمّها، وكسر أنياب الأفعى وسكب سمّها على الأرض. هكذا تماماً أنهى المسيح على الموت بأن كسر سلطان الخطية وأزال مفعولها عن الإنسان الجديد إلى الأبد.

فمن ذا الذي يخاف من عقرب فاقد ذيله أو من ثعبان فاقد أنيابه؟! ألا يكون بعد موضع سخرية وشماتة، ومهياً تماماً أن ندوسه بأقدامنا؟! إن المسيح الذي رفع عنا الخطية ومسح آثارها المخزية بالدم الإلهي، أزال عنا بالتالي كل سطوة الموت ورعبته، وقيامته تشهد بذلك! وحتى موت الجسد سوف لا يدوم، لأنه حتماً سيأتي الرب

وستأتي أرواحنا معه، لتأخذ كل روح جسدها مجدداً من يد الرب. ولكن ينبغي أن نثق أن موت الجسد لن يوقف عملنا في الرب، ولن يضع حداً لآمالنا السعيدة في المسيح، ولن يُنقص حبنا لله أو للناس ولا قيد شعرة. بل على العكس، فإن تحررنا من الجسد سوف يعطينا فرصاً جديدة لخدمة الرب، وأعماقاً أعظم لحبه وحب الناس جميعاً. لذلك فالموت لن يُنقص من قامتنا الروحية أو يحد من رسالتنا السعيدة في خدمة المسيح، بل إن كل ما ينقصنا ويعوزنا الآن، سنستكمله بالضرورة عندما نخلع خيمتنا الأرضية ونلبس السماويات ونستوطنها!

يا لذلك اليوم السعيد الذي تنفتح فيه عيوننا وآذاننا على الأبدية! وننضم لخورس السمايين، ونتعلم الترنيمة الجديدة: «ترنيمة موسى عبد الله وترنيمة الخروف» (رؤ ١٥: ٣). هناك ستنفك عقدة ألسنتنا، لنرغم بألحان فائقة الإتقان والتعبير، لأننا سنعي جمال الله الفائق وعياً روحياً، ينضح على قلوبنا فيضاً من تسبيح يدوم إلى الأبد.



ساعة الموت

أولاً:

يحدد بولس الرسول لنا الخطوط العريضة التي تتحكم في ساعة الموت:

«لأن لي الحياة هي المسيح، والموت هو ربح، ولكن إن كانت الحياة في الجسد هي لي ثمر عملي، فماذا أختار، لست أدري، فإني محصور من الاثنين، لي اشتها أن أنطلق وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جداً. ولكن أن أبقى في الجسد ألزم من أجلكم. فإذ أنا واثق بهذا أعلم أنني أمكث وأبقى مع جميعكم لأجل تقدمكم وفرحكم في الإيمان، لكي يزداد افتخاركم في المسيح يسوع في بواسطة حضوري أيضاً عندكم.» (في ٢١: ٢٦)

ومن هذه الكلمات المنيرة، نستطيع أن نجمع المبادئ الآتية:

- ١ - إن حياتنا هي ملك للمسيح وليست ملكاً لنا.
- ٢ - إن الموت الذي نموته بأي شكل وبأية صورة وفي أي وقت، هو ربح، طالما نحن نعيش الآن للمسيح، أو طالما أن المسيح يملك حياتنا.
- ٣ - الحياة في الجسد قد يستزيدها المسيح من أجل الثمر المتحصّل

منها لحسابه، فبالرغم من أن الإنسان يكون مهياً للانطلاق ليكون مع الرب، إلا أن الرب يعوق انطلاقه ربما سنين كثيرة، كما حدث للقديس أنطونيوس لما طلب الانتقال لنفسه، إذ قال الرب لروحه: "إنك والدة حسنة ومربية صالحة، وقد تركتُك لتربي أولادك حسناً" (رسالة ١٩).

٤ - قد يحدث للإنسان الصالح أن يختار لنفسه بين الانطلاق ليكون مع الرب، أو البقاء في الجسد لخدمة أولاد المسيح بسبب ضرورة شديدة.

٥ - إن إحساس الإنسان الصالح بالانطلاق ليكون مع المسيح، يصاحبه شعور بالبهجة الشديدة، ويتيقن جداً من أفضلية الحياة مع المسيح!!

٦ - بالرغم من ثقة الإنسان الصالح بأفضلية الانطلاق والحياة مع المسيح، إلا أنه يستطيع أن يفضل البقاء في شقاء العالم والجسد من أجل خير أولاد المسيح وخدمتهم، والرب يوافق.

٧ - الإنسان الصالح يعلم تماماً أن طلبه الذي يطلبه من الرب ليبقى في الجسد من أجل تكميل خدمة أولاد المسيح، يُستجاب بسرور: «فإذ أنا واثق بهذا، أعلم أنني أمكث وأبقى مع جميعكم لأجل تقدمكم وفرحكم في الإيمان.» (في ١: ٢٥)

+ أما مجمل هذه النقاط السبع، فهو أن تحديد ساعة الموت بالنسبة للذين يعيشون مع المسيح، يتقاسمها الرب مع أولاده الأمناء، ويتحكم فيها مقدار الثمر المتحصل من حياة الإنسان. فساعة الموت

ذات صلة شديدة برسالة الإنسان الروحية، وكأنما الإنسان الصالح لا يعيش لنفسه ولا يموت لنفسه، كما يقول الكتاب: «إن عشنا فللرب نعيش، وإن متنا فللرب نموت، فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن.» (رو ٨: ١٤)

+ وقد يكون موت الإنسان بحد ذاته تمجيداً لله أكثر من كل ما عمله الإنسان في حياته، لأن الشهادة للمسيح بالموت لا يعادلها شهادة مهما عظمت الحياة وطالت مدتها حتى ولو كانت مائة عام! ومعروف أن رتبة الشهداء أعلى في كافة رتب القديسين، فهي من بعد رتبة الرسل مباشرة، كما أنه معروف أيضاً أن الرب حينما يريد أن يكرم إنساناً جداً، يهيئ له فرصة الشهادة بالدم، لذلك كان يدعو كثيرين في أيام الضيق للشهادة. وكأنما ترك الرب للإنسان أن يحدد موعد وطريقة انطلاقه!! فكانوا يذهبون إلى ساحة الاستشهاد وهم على علم متى سينطلقون وكيف سينطلقون، سواء كان بالسيف أو الحريق أو الوحوش أو آلات التعذيب. وهكذا تحولت رغبة الموت وساعته المخيفة ووسيلته المرعبة إلى خطة أُعطي للإنسان أن يرسمها بيده ويختار مياعداها وظروفها، ويتنظرها بفرح وتهليل كعيد أو كحفل زفاف!!

فما أعظم هذه النصرة فوق الموت التي حققها المسيح للإنسان، أن يعرف الإنسان ساعة موته ويفرح لها ويتהלل!!

ثانياً:

يكشف لنا بطرس الرسول عن مستوى الموت كحادثة زمنية:

+ «ولكني أحسبه حقاً ما دمت في هذا المسكن أن أنهضكم بالتذكرة، عالماً أن خلع مسكني قريب كما أعلن لي ربنا يسوع المسيح أيضاً، فاجتهد أيضاً أن تكونوا بعد خروجي تذكرون كل حين بهذه الأمور.» (٢ بط ١: ١٣-١٥)

١ - بطرس الرسول هنا نراه مثل بولس الرسول يشدد على أن حياته بالجسد وقفٌ للرب، وأن عمله الأساسي طالما هو يعيش في الجسد، أن يكرز بوصايا الرب، ويذكر بها أولاده مراراً وتكراراً.

٢ - الحياة بالجسد يشبهها بطرس الرسول بالوجود داخل مسكن مبني بحجارة أو بطين. هذا هو الجسد في نظر بطرس الرسول.

٣ - كما يخلع الإنسان ملابسه، أو يخرج من مسكنه المبني بالطين، هكذا يرى بطرس الرسول حادثة الموت التي فيها يخلع جسده الذي يسكن فيه على الأرض.

٤ - أن الموت بهذه الكيفية أو على هذا المستوى، أي بوصفه خلع مسكن أرضي، لقبول مسكن سمائي، أعلنه الرب لبطرس الرسول أنه سيتم له قريباً. وهنا الإعلان عن ساعة الموت يجيء مشدداً جداً للرسالة التي أوثمن عليها هذا الرسول: «أحسبه حقاً ما دمت في هذا المسكن أن أنهضكم بالتذكرة».

وهكذا يأتي تحديد ساعة الموت مُستجِثاً لمزيد من الكرازة، وداخلاً في إطار إرادة بطرس ومسرة قبوله.

٥ - بطرس الرسول يعطينا نظرة مبدعة عبر الموت وبعد الانتقال وكأنه قد تم، فيهتم كيف يكون أولاده بعد خروجه من الجسد:

«فأجتهد أيضاً أن تكونوا بعد خروجي تتذكرون كل حين بهذه الأمور». وهكذا يصور لنا الموت تصويراً غاية في الرقة والبساطة دون أي انزعاج منه أو تعقيد، مجرد خروج وسفر سعيد تنتهي عنده حدود رسالته كمعلم وكارز، فيجتهد قبل خروجه أن يؤمن رسالته حتى لا يكون في خروجه توقف لها!!

وإن كان بطرس الرسول هنا قد شبه حادثة الموت بـ "الخلع" أو "الخروج"، نجد أن بولس الرسول يشبهها في موضع آخر بـ "الانحلال": «وقت انحلالني قد حضر» (٢ تي ٤: ٦)، وهو اصطلاح يستخدمه البحارة عند فك ربط المركب للسفر عبر البحار.

+ وهكذا في هذه النقاط الخمس، نجد أن تحديد ساعة الموت دخل ضمن نطاق علم الإنسان ليزداد الإنسان تأكيداً لرسالته، حيث تتكشف حادثة الموت وتزداد رقة وبساطة ونوراً، لتصبح كخلع الثوب أو المسكن، أو كسفر سعيد لا يحتاج إلى استعداد بقدر ما يحتاج إلى توصية المودعين!!



تحديد عمر الإنسان

في العهد القديم، نقرأ عن البطارقة إبراهيم وإسحق ويعقوب وكل أتقياء الله، أن كل واحد منهم: «مات شيخاً وشبعان أياماً» (تك ٢٥: ٨ و ٣٥: ٢٩)، وهكذا كان رضى الله عن الإنسان قديماً يُقاس بطول العمر، كما كانت مكافأته تُقاس بالخيرات الزمنية. لذلك نسمع داود النبي يتوسل من جهة نفسه أن «لا تقبضني في نصف أيامي». (مز ١٠٢: ٢٤)

كذلك نرى الله في العهد القديم، يسمع لصلاة الإنسان، ويزيد أياماً على أيامه: «في تلك الأيام مرض حزقيا للموت، فجاء إليه إشعيا بن آموص النبي وقال له: هكذا قال الرب أوص بيتك لأنك تموت ولا تعيش. فوجه وجهه إلى الحائط وصلى إلى الرب قائلاً: آه يا رب، اذكر كيف سرت أمامك بالأمانة وبقلب سليم وفعلت الحسن في عينيك. وبكى حزقيا بكاءً عظيماً. ولم يخرج إشعيا إلى المدينة الوسطى حتى كان كلام الرب إليه قائلاً: ارجع وقل لحزقيا رئيس شعبي هكذا قال الرب إله داود أبيك، قد سمعت صلاتك، قد رأيت دموعك، هأنذا أشفيك، في اليوم الثالث تصعد إلى بيت الرب. وأزيدُ على أيامك خمس عشرة سنة.» (٢مل ٢٠: ١-٦)

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن الرب أرسل النبي إلى حزقيا ليُعلمه

بساعة موته، كما نشير إلى غاية الرب من هذا الإعلان ضمناً، وهي توصية الملك لأولاده من جهة أتباع طريق الرب حسب أمر الرب. ولكن نرى الأمر هنا يتغير فجأة، ويستطيع حزقيا أن يغير ساعة موته!! إذ يطلب المزيد على سني حياته المحددة، فيستجاب طلبه بناء على صلاة ودموع.

هنا وفي صميم العهد القديم، تظهر رحمة الله ويظهر لطفه جداً على الإنسان، حيث يبدو الموت كحادثة، وإن كانت محددة بحسب تدبير الله وسابق علمه، إلا أنها قابلة للتغيير والتأجيل، بتدخل مشيئة الإنسان الصالحة وصلاته ودموعه. هنا يفقد الموت كثيراً من حتميته المرعبة وتحديده القاطع المخيف.

المسيح في العهد الجديد يكشف عن سلطانه الشخصي على الموت وعلى إطالة عمر الإنسان، في إطار من البساطة، ولكن في معنى الألوهة الفائقة القدرة والسلطان: «قال له يسوع إن كنت أشاء أنه يبقى حتى أجيء فماذا لك؟ اتبعني أنت. فذاع هذا القول بين الإخوة إن ذلك التلميذ لا يموت...» (يو ٢١: ٢٢ و٢٣)

ولكن سلطان المسيح لا يقف عند إطالة عمر يوحنا، لقد امتد وشمل كل من يولد من الله، المؤمنين باسم المسيح: «وكل من كان حياً وآمن بي، فلن يموت إلى الأبد.» (يو ١١: ٢٦)

في العهد القديم تحسب إضافة ١٥ سنة على عمر حزقيا، أمراً إعجازياً ولطفاً من الله كثيراً، غمر حياة حزقيا بالشكر، وغمر كل أتقياء الله بهذا الإحساس عينه، أي بالشكر والامتنان.

أما في العهد الجديد فقد أضاف المسيح حياته على حياتنا، فمحننا سنين الأبدية كلها التي لا قياس لها، فصار عمر الإنسان ممتداً إلى مالانهاية. لقد رفع المسيح عن أولاده تحديد عمرهم، فصار عمرهم عمره، أي الأبدية كلها بكل طولها وعرضها وعمقها وعلوها في المجد.

وعمرنا في المسيح لا يبدأ من حادثة الموت الجسدي، بل من لحظة الشركة في موت الرب بالمعمودية وقبول الروح القدس والميلاد الجديد!

إذن فعمرنا في المسيح يبدأ منذ الآن وفي صميم هذا الدهر، ويمتد عبر كل الحوادث والموت ليشمل الأبدية. الموت لا يقطع ولا يوصل. عمرنا يبدأ بالإيمان والمعمودية، ولا ينتهي ولا يتوقف ولا يُستزاد.

الخطية كانت فيما مضى تفصل الإنسان عن الله، لأنها تعدّ، والتعدي يُنشئ عداوة، والعداوة ظلمة. فكانت الخطية تحدر الإنسان إلى حالة الظلمة الخارجية التي تكلم عنها الرب، وتوقعه في صراع يائس مع الموت بل ومع الحياة.

المسيح رفع الخطية من الوسط. حلّ المسيح محل الخطية، وصار وسيطاً بيننا وبين الآب: لا وساطة الشفاعة الكفارية فحسب، بل جعلنا أولاً واحداً فيه، وحدنا في نفسه وفي جسده وفي روحه، جعلنا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه (أف ٥: ٣٠).

ثم إذ هو واحد مع الله الآب، صرنا نحن فيه وبواسطته واحداً أيضاً مع الآب بحسب صلاة المسيح الشفاعية (يو ١٧). هذه الوساطة عينها جعلتنا نسير في النور وفي صميم الحياة مع الله، في تحدي الموت كل

يوم، ما دام لنا المسيح، لأن المسيح كفيف دائماً أن يمسخ الخطية ويلغي فعلها كتعد، لأنه أَرْضَى الآب عنا بذبح نفسه عن كل تعد في الماضي والحاضر والمستقبل. فالآن الخطية فقدت قدرتها على فصلنا من الله، ذلك الانفصال الذي كان هو هو الموت، فكان الموت أبشع ما يمكن أن يحدث للإنسان. الآن الموت لا يفصلنا عن الله!! لقد زال أبشع ما في الموت!! الموت الآن وفي المسيح يضع نهاية لعمر الجسد، ولكن لا يضع نهاية لعمر الإنسان. لأن الإنسان في المسيح يسوع، قائم مع الله على الدوام، في هذا الزمان وفوق هذا الزمان.

الإنسان الذي يعيش مع المسيح بالروح، ينتقل تلقائياً من الزمان الحاضر إلى الأبدية الحاضرة، من حياة حسب الجسد إلى حياة حسب الروح، يموت كل يوم عن العالم، ليحيا بلا انقطاع مع الله.

الصلاة الحارة والحب المتأجج والدموع اللذيذة، تحول الساعات والأيام إلى خلود. الخدمة الباذلة وفناء القوة الجسدية، حباً في الرب، والتبذير في مال الظلم لحساب إخوة المسيح، يحول الوقت المرفوض إلى وقت مقبول، والفراغ إلى ملء..

كيف بعد ذلك كله نقول إن إنساناً مات، وهلمَّ نبكي عليه؟ أليس من الأفضل أن نعمل لروحه قداساً، ونزفها إلى العريس السمائي، ونجلس نعمل معاً «أغابي»، لأن حبيبنا الآن أسعد مما كان؟! □

صلاة

نشكرك يا رب لأننا آمانا بك واعتمدنا لموتك
وانسكب علينا روح قيامتك فلن نموت أبداً لأننا نحيا بك؛
سيضعون أجسادنا في القبر يوماً ما،
أما نفوسنا الحية بروحك فلن تشارك الجسد في قبره المظلم أبداً،
ولن يعيش فيها فساد،
بل سننطلق لنكون معك كل حين في نور قديسيك؛
نتبعك أينما تكون،
نشاركك بهجة قيامتك ونصرة سلطانك وملكوته،
كمواعيدك الحقيقية غير الكاذبة.



رسالة كُتبت لأحد الأحباء عن

معنى الموت في المسيحية

(في مناسبة انتقال الابنة الوحيدة له)

عزيزي وأخي في الرب

نعمة وبركة وسلام لشخصك المحبوب. أتعشم في وجه ربنا يسوع المسيح أن تكون في ملء تعزية الروح القادر أن يسكب في قلبك من فيض مراحمه هبة السلام لتظل في تعزية دائمة.

لقد تأخرت في الكتابة إليك وكأنما قد ادخر الله كل مشاعري نحوك لأقدمها في الوقت المعين، إن كان خطابي هذا ربما يكون آخر ما وصلك من تعزيات. كما أظن أنني قد أضعتُ فرصة حسب منطق الناس، إذ أعتقد أن انتقال ابنتنا المحبوبة (فلانة) ليس بمحادثة تُنسى أو يتقادم عليها العهد. بمضي الزمن. غير أنني أقصد في تعزيتي شيئاً أسمى مما يتعارف عليه الناس الذين يعتبرون التعزية اشتراكاً في حزن أو دعوة إلى نسيان الحزن ذاته، بل أرجو بنعمة الرب ومعونة الروح القدس أن أكشف لمحبتك شيئاً أسمى عن حقيقة ذلك الانتقال الذي حازته ابنتنا المحبوبة.

الموت يعمل فينا:

فإن كان يخطيء الكثيرون بجعل الموت واقعة من وقائع الحياة، إلا أننا نعتبره حياة واقعة نحياها في هذا الدهر. فنحن نحيا الآن حياة

قوامها الموت، يتخللها في كل مرحلة من مراحلها ويعمل في كل عضو من أعضائها في كل لحظة، إلى أن يتم عمله فينا وتكمل حدوده. وحينئذٍ نعبّر هذه الحياة المائتة لنحيا حياة الأبد غير المائتة. فالموت، إذن، كائن معنا في صميم كياننا وفي داخل كل عضو من أعضائنا، يعمل فينا بشدة، بالرغم من تجاهلنا. ونحن لو توخينا الحقيقة وتأملنا ملياً في موضوع الموت، لوجدناه أهم وأعظم موضوع في هذه الحياة الحاضرة. بيد أنني أريد أن أقول إنه ليس أعظم موضوع فحسب؛ بل هو أسنى من أن يُدعى موضوعاً، إذ هو في حقيقته عملية تجريد كامل لكل موضوع وكل اهتمام في هذه الحياة.

ولكنه هو الباب المؤدي إلى الخلود:

فالموت يجرد الإنسان تجريداً من كل شيء حتى ذاته التي يعزُّها ويحبُّها، ولا يُبقي للإنسان إلا روح الحياة ذاتها وما ينسجم مع الخلود. فكأن الموت والحياة هما خلاصة حقيقة الإنسان. وحتى الحياة مدنية في تكميلها ودوامها إلى الموت. ولذلك نجد أن كل نفس تشتهي حياة الخلود لا تجزع من الموت لأنه بابها والطريق إليها.

وحينما تسمو روح الإنسان وتتكشف أمامه هذه الحقائق الثابتة ويعرف أن الموت كائن فيه وممكن أن يتم فيه في أي لحظة، فإنه يشعر بما تتصف به الحياة من بطلان، فلا يعود ينطوي تحت مغرياتنا ولدائتها، ولا تعود الأشياء التي في هذا العالم تستأثر بتفكيره واهتمامه أكثر من تفكيره واهتمامه بالحياة الخالدة واعتباره بأهمية الموت وحقيقته. ويستطيع الإنسان الواعي لوجوده أن يدرك بسهولة أنه موجود ليموت وأنه يموت ليحيا.

وهكذا، فالموت ليس طاعياً ظالماً:

ومهما حاولنا أن نخفي هذه الحقيقة الجوهرية عن أنفسنا، أي أننا موجودون للموت، فهي لا بد وأن تستظهر على جميع معرفتنا وإدراكاتنا يوماً. ويخطيء الكثيرون إذ يعتبرون الموت حادثاً اضطرارياً فيمثلونه بالجار الطاعني الذي يخطف الناس ويبتلع البشر، مع أن الموت كما قلت لمحبتك ليس بعامل خارجي عنا، بل هو فينا يكمل وجودنا ويسوقنا إلى حياة أفضل.

لذلك لا نستطيع أن نقول إنه قاسٍ أو طاعٍ أو ظالم، فهذه أوصاف جاهلة لعدو غير موجود أصلاً. وإن شئت الحق فقل إن الموت يعمل بهمة ونشاط من اليوم الأول الذي نولد فيه. ونحن نتركه يعمل فينا بحريتنا، إذ نتقبل وجودنا وحياتنا بمسرة وبمنتهى الحرية. فنحن نتقبل الموت أيضاً كذلك لأنه جزء لا يتجزأ من وجودنا، إذ لا يمكن أن نفصل الموت عن الوجود بأي حال من الأحوال. والذي لا يريد أن يقبل الموت فهو ينكر وجوده، وهذا منتهى الجهالة بالحق. فالوجود هو الله.

إماتة نواتنا هي الطريق لنوالنا الحياة:

وعلى هذه الحقيقة العظمى (الوجود هو الله) نقرأ قول السيد أن: «مَنْ يهلك نفسه من أجلي يَجِدْهَا» (مت ١٦: ٢٥). وهذه دعوة عجيبة لتحقيق الوجود في الخلود على أساس إماتة الذات! ولكي يؤكد المسيح هذه الحقيقة العظمى، عاد فعكس الوضع ليُظهر منتهى الخسارة التي تعود على مَنْ يتجاهل أهمية الموت قائلاً: وكل مَنْ وجد ذاته يضيّعها. وهذا أيضاً تحذير عجيب من ضياع الوجود والخلود بسبب

الإبقاء على الذات. هذا هو الموت الذي يريد بعض الناس أن يتجاهله ويخشاه البعض الآخر، ويعتبره الجميع عدواً، معطين له ركناً مظلماً في مشاعرهم، جاعلينه خاتمة حزينة للحياة، مع أن الموت كما شرحت لمحبتك هو نسيج الحياة: سدأته الأيام ولحمته الآلام. فالיום فرسخ من فراسخ الموت، والألم موت لم يتكامل بعد.

فإن كان أحد من الناس يستطيع أن يتجاهل الأيام أو يتجاهل الآلام، صحَّ له أن يتجاهل الموت. وهل يمكن؟

هل يمكن أن نتقبل الموت في أحبائنا دون أن نتألم؟

إذا، فليس في الوجود حقيقة أظهر من الموت ولا أهم منه إلا الحياة ذاتها، والموت طريقها. ولكن، هل يمكن أن نتقبل الموت في أحبائنا دون أن نتألم؟ إن مَنْ يقول ذلك فهو يتجاهل الحقيقة أو يتجاهلها، وكل مَنْ يدعو إلى ذلك فهو إنما يحاول أن يجرد الإنسان من عواطفه ومشاعره. وها أنا بكتابي إليك، أعمل على توضيح قيمة الموت وتعظيمه، لأن في ذلك تلامساً شديداً مع الحق. كذلك فإنني لا أريد أن أستصغر قيمة الألم، بل على النقيض أود لو أظهره وأستوضحه، لأن في ذلك تلامساً أشد مع الحق، إذ أن الألم لازمة من لوازم العنصر الإنساني بل إنه كلما ارتقت مشاعر الإنسان وازداد نبلة، ازدادت قابليته واستشعاره لنواحي الألم العديدة.

كيف قبل المسيح الألم والموت:

وها هو المسيح يُدخل الألم كعنصر أساسي في برنامج الخلاص الأبدي ويضع ذاته تحت كل مطالبه، كما لم يتجاهل الموت المتحصل

من الألم؛ بل كان يرى ظل الصليب ينعكس على كل خطوة ويمتد أمامه في الأفق البعيد، فتقبَّله وارقبه. وهو لما تحمَّل الآلام، تحملها دون أن يكون مستحقاً لها، فاستطاع أن يقدم لنا حلاً وجواباً عملياً مقنعاً لأعقد مشكلة واجهت البشرية وهي: لماذا تألم؟

فهو تألم مع كونه غير خاطيء، وبالتالي غير مستحق للألم ولا للموت. ولكنه قيلَ أن يتألم بإرادته ومسرته ليرفع قيمة الألم أمامنا من مجرد عقاب على خطية، إلى صورة رائعة من صور المحبة!! المحبة من نحو أبيه ومن نحونا. هذه المحبة التي حوَّلت - في اعتباره - الألم إلى لذة، وبذلك لم يعد الألم في طريق حياتنا عقاباً على خطية، لأن المسيح بآلامه وفي جميع ديوننا، بل صار الألم طريقاً عملياً لإظهار الإيمان بقبول الألم بمسرة، كمشاركة فعلية في يوم الصليب.

الألم فرصة للتعبير عن محبتنا للمسيح:

ونحن لم يوهب لنا في عالمنا الحاضر فرصة أو وسيلة يمكننا أن نُعبِّر بها عن حبنا للمسيح، أعظم من أن نتألم فرحين على حد قول بولس، مكملين آلام المسيح في أجسادنا، وحاسنين أنفسنا أهلاً أن نتألم معه على غمط تألمه، أي عن حب لا عن اضطرار.

وإن كان بعض العلماء والأطباء يدَّعي أن الانتصار على الألم يكون بتجاهله أو الانشغال عنه بنوع من أنواع التسلية اللذيذة، إلا أن هذا ليس بالنصح الرشيد، فلن يمكن الانتصار على الألم بتجاهله أو بالانشغال عنه، لأنه بذلك لن يكف عن أن يهدِّ في كياناتنا الجسدي والنفسي، ولن يتم الانتصار على الألم إلا بتقبُّله قبولاً حراً، متعرِّفين

على أسبابه وأهدافه. إذ أن قبول الألم والارتضاء به فيه نصره أكيدة وعجيبة، خصوصاً إذا كان قبولنا له على أساس حبنا للمسيح ومشاركتنا حياته، كما تقبله المسيح حباً لأبيه ولنا. ويقول الرسول عن ذلك، معبراً تعبيراً عميقاً: «لأنه قد وهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط بل أن تتألموا لأجله» (في ٢٩:١). وفي هذا يفتح يعقوب الرسول رسالته قائلاً: «احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة.» (يع ١:١)

نودّع جسد الميت، أما روحه فهي أعظم من أن نودّعها:
هوذا يا أخي نحن نودّع هياكل أجسادنا التراب لتبلى وتعود إلى التراب الذي نمت وترتبت فيه. أما هياكل أرواحنا فهي أعظم من التراب وأعظم من الكاتدرائيات العظمى التي نطن أنها تقدّس أرواحنا، لأن روح الإنسان من الله. لهذا فهي لها كرامة أفضل بقدر فضل باني البيت عن البيت نفسه، فإن كانت علائق حبنا ورُبطاً ألفتنا جسدية فقط، فما أضعفها علائق، وما أهونها رُبط لأنها تكون وشيكة الضياع، سريعة الزوال. والزمن الحقيق في سنين يسيرة قادر أن يُضعفها ويمحوها!

أما إذا كانت ألفتنا روحية وحبنا ووحدتنا قائمة على أساس عمل المسيح في توحيد المؤمنين به، فهذه تكون ألفة الأبد ومحبة الخلود الذي لا يقوى الزمن مهما طالت به كل السنون أن يُضعف من شدتها. فهل نرفع علائقنا بأحبائنا - سواء الذين سبقوا فرحلوا أم الذين أُعطي لهم زماناً قليلاً بعد - فنكمل معهم وحدة الخلود الأبدية في شخص المسيح؟ فلا تعود العواطف الجسدية والحنين إلى صور الوجوه فقط تستأثر روحنا، بل نسمو بأرواح أحبائنا وصورهم لنراها حية خالدة

مطبوعة على قلب المسيح، يربط بها روح المسيح الحي فينا.

ليتنا نسمو:

نعم ليتنا نسمو في تقديرات حوادث هذا الدهر، عالمين أن كل ترتيبات البشر الزمنية ستؤول حتماً إلى الانحلال ثم إلى الزوال. ولن يبقى من هذه الضجة الكبرى التي نحن في موكبها، من الطفولة إلى الانتقال، إلا ما ينسجم مع قانون الخلود. وسيان ما تبطنه الحوادث وما تُظهره، أكان جميلاً مُسرّاً أم أليماً مخزناً. نعم، سيان ما تبطنه الحوادث، فكل الحوادث التي نعبر بها أو تعبر بنا، سوف تنصفي جميعها وتغتسل في نهر الحق الأبدي، ولن يبقى من كل ما عملت أيدينا وما اشتهدت قلوبنا إلا ما هو جليل وحق.

وما أعظم الحياة التي تتلامس نسماتها التي تنبعث من قلوبنا مع الحق ومع الله. فحياة مثل هذه تخط في كياننا الروحي صورة ملموسة عن الخلود الذي نحسّه ونحبه. ولو انكشف الحق في قلوبنا لأدركنا أننا نجاهد يومنا وعمرنا لحساب هذا الخلود الذي سنحياه، ولصار بذلك أمر الموت مبهجاً عندنا كالحياة.



لذلك أكتب إليك أيها الأخ العزيز إلى نفسي وإلى قلبي، يا مَنْ استودعت ابنتك لدى أذرع يسوع التي هي أحسن وأحن وأحب من ذراعيك، لكي تعزى تعزية حقيقية دائماً لا بتناسي الموت بل بتذكره، عالماً أن (فلانة) قد انتقلت لتكون أكثر قرباً إلينا، إن كنا نحيا في حقيقة الحياة لا في صورها الزائفة.

كن معافى باسم الثالوث الأقدس

(١٩٥٧م)

القمص متى المسكين

رسالة تعزية لزوج فقد زوجته

بسم الآب والابن والروح القدس
إله واحد. آمين

عزيزي الأستاذ ... وأخونا في الرب؛

لك سلام من رب السلام، أيها الأخ المبارك، فالتجربة للصدِّيق إكليل في المنظر الروحاني، لأنه صعب أن نُكَلَّل مع المسيح وفيه، ما لم يكن هناك شهادة تثبت أننا شركاء الذي قال: «وتتركوني وحدي، وأنا لستُ وحدي» (يو ١٦: ٣٢). فالذي معك الآن أثنى وأغنى مما كان، لأنك بحق وسرور كنتَ وزوجتك في شركة معاً ومع المسيح، فالذي تبقى هو صاحب الشركة الحقيقية معها، وبالتالي أيضاً هو الشريك الأعظم لك ولها. فشركتك مع زوجتك باقية بأقوى مما كانت، لأنها قد نالت إكليل الحياة الأبدية مع المسيح لما كانت معك، وهي في انتظارك لتكون شركتكما غنية وأبدية، لأن شركة الروح تدوم في سلام إلى الأبد. فإن كانت العين الجسدية قد فقدت تسليتها، ولكن الروح الآن بغير جسد ترى جمال ما أعدّه الرب من نصيب ليدوم فرحك وسرورك إلى الأبد لك خاصة.

واعلم، يا أخي، أن الزواج نموذج لكيف ستتعرّى هناك ولا يأخذ أحد عزاءك منك أبداً. فالعزاء الجسدي والزمني نموذج مصغر للنموذج

الأعظم الذي ينتظرنا في غنى عزاء المسيح الأبدي.

ولكن، أي حزن أو شعور بالخسارة أو الوحدة يقلل من الفرح الدائم والعزاء الدائم الذي يصير من حظنا ونصيبنا، أما تقديم الشكر والرضا والصبر الصابر على التجارب التي تصيب الجسد فهي شهادة استحقاق ننزعها من العالم قبل أن نغادره.

أما الذي يقدم فيض العزاء بالترتيل فهو كمن يزين نصيبه ويرفع من فضل المسيح ويعطيه المجد ويأخذ موضعه من الآن في خوارس السماء، مبرهنًا أنه مستحق السماء.

ليكرمك الرب لتكون من مختاريه،
ولتفعك تجربتك لتكون من المسبحين
والمرتلين أمام عرشه
الأب متى المسكين

